الثقافة العربية والدور المأزوم

يقف العرب في ظل هذه اللحظة (الراهنة) وهم في أشد حالات العجز والوهن والاضطراب. واذا كان مكمن العجز يتبدىّ في الواقع السياسي، هذا بالاحتكام الى طبيعة توزيعات القوى وترسيمات العلاقات الدولية، ومقومات السلوك السياسي الذي يميز هذه القوة السياسية عن تلك، فان واقعاً آخر يمثل فيه الضعف وقلة الحيلة الى حدّ الاضطراب، يبرز في المجال الثقافي. ومن دون توسيع في طبيعة الانشطة الداخلية التي تميز المجتمعات، فان القول حول التباطؤ في الفعاليات الداخلية وعلى مختلف المستويات، يكون بمثابة النتيجة المنطقية، لحالة الخلل التي تفرد قسماتها على الواقع. فإذا كانت القطاعات الرئيسة من الحياة تعاني الوهن والخلل، فانها تكون بمثابة العدوى التي تستشري اعراضها على مختلف المفارق والمفاصل.

د. اسماعيل نوري الربيعي

الثقافة والاستجابة الفاعلة

ان الارتباط الذي تحققه الثقافة في المجال الاجتماعي بوصفها اداة استجابة للواقع المعاش، تبرز التقاطع الفاضح بطبيعة الدور الطليعي الذي يجب ان تضطلع به، هذا بحساب المأمول والمرغوب فيه، والواقع ان الثقافة العربية بوضعها الحالي تفصح عن التأثر الشديد والبالغ، بطبيعة البيئة والمحيط الذي تعيش فيه. حتى لتكون تجلياتها والنتائج المتمخضة عنها نتاجاً شديد الوضوعية لهذا الاختلاط وسوء التدبير الذي يحيط بالمجتمع العربي برمته.

والوقوف على حافة التحدي الدائم، والانغماس في الاستجابات الناقصة، يكون للمدح الاشد حضوراً وتميزاً في الفاصل والقسمات الثقافية.

وبقدر الفشل الذي يتبدى من خلال الزحل وسوء الاستغلال للموارد والطاقات والكفاءات، فان الثقافة بدورها، تكون هي الأخرى من ضحايا هذا الواقع المزري. والا فإن تحميلها مشروع قيادة المجتمع نحو النهوض والتقدم، سيكون إثقالاً وتمثلاً لا يمت للواقع بأية صلة. ومهما تعالت الاصوات برفض التخلف وتوجيه الانظار نحو تحقيق الغايات والامال الكبرى، فان الواقع يبقى يمثل الساحة الكاشفة والفاضحة لجمل التفاعلات والعلاقات السائدة داخل النظام الاجتماعي. ولعل السؤال الاهم يتعلق بالطريقة التي ننظر نحن بها الى الثقافة، هل هي غاية ام وسيلة؟ هل هي سبب ام نتيجة؟ ومن هذا التعالق الذي يحيط برأس الثقف العربي، وليس للواطن البسيط العادي. يتم تغييب الحقيقة في لجة من ضياع الادراك والتقاعد والاهداف. فالاصوات ومنذ قرنين تتنادى بالنهضة باليقظة والاصلاح والثورة، لكن بمستوى الواقع المباشر. فالثقافة مجال اجتماعي حالها يكون كحال السياسة والاقتصاد والتذوق الجمالي.

سؤال الغاية

التصلب الذي يسود وجهات النظر لاهل اليقظة والاصلاح والثورة، لكن بمستوى الواقع المباشر. فالثقافة مجال اجتماعي حالها يكون كحال السياسة والاقتصاد والتذوق الجمالي.

سؤال الغاية

التصلب الذي يسود وجهات النظر إزاء الثقافة كمضمون ومدرك واع، يجعل منها واقعة تحت إسار هذه الجاهزية، التي يدمجها البعض في مضمون فوهية، باعتبارها اصلاً غير قابل للمداولة او حتى التداول في شروطه وأسسه، في حين ان طبيعة الوعي بفكرة التقدم تفصح عن اهمية توسيع مجال النظر بالمضامين المتعلقة بهذا الكلي والشمولي بالثقافة ذاتها. ومن هنا تحديداً يكون الوقوف على طبيعة النظرة الى مفهوم الثقافة لدى العرب، حتى لتكون النتيجة التي يتوقف عندها بعض الباحثين وللاّ لحقين الى السالة الثقافية، والخروج منها بتوصيات من نوع البنية الثقافية والتحدد والاستجابة. في انغماس تتوجه فيه الغايات والاهداف، نحو تصور موحد غير قابل للمعاينة والمراجعة والتفحص والتدقيق.

لعل العودة الى سؤال الغاية والوسيلة، في الوضع الذي يحدد طبيعة العلاقة ما بين المجتمع العربي والثقافة من حيث الوظيفة التي يمكن ان تضطلع بها، واهمية الدور الذي تكون عليه. وعبر تجربة لتحديث التي عاشها العرب والجهود البالغة التي بذلوها نحو ترصين مجال الواجهات الثقافية، حيث التطلع نحو العناية بالتعليم والصحافة والطباعة. الا ان هذا الانشغال الطويل والذي يكشف عن مداه الزمني، هذا التأصيل الرتبط بجهود الرواد، وبراز الكفاءات والخبرات، انما ينطوي على هذا الادراك بالجوانب لخارجية. ولعل النتائج التي يفصح عنها الواقع، تكون بمثابة الدليل الملموس على هذا التطلع الذي اكتفى بالواجهات، فيما تم غمض الطرف عن التمثل الاصيل لمفهوم الثقافة.

فقد انشغل العرب جميعاً رسميين واهليين، بالاهمية الحصول على حظهم من هذا الميدان، الذي اعتقدوا فيه القياس الاهم للتقدم والتطور، حتى انهم وفي الكثير من الاحيان كانوا يتطلعون الى التفاعل العاطفي وتمام الظهر الاجتماعي. حتى لتكون القراءة ذاتها وقد استحالت الى فعل تنحرف وظيفته الاصلية الى مجال آخر قوامه الباهاة والتفاخر، وجعلها أداة للتمايز الاجتماعي. فيما عكس الاتجاه الرسمي الصادر عن المؤسسات التعليمية، عن هذا التوسع الكبير والهائل في حجم التعليم وبمختلف مراحله وانواعه. الا ان انحسار الفرط الذي اندرجت فيه هذه المؤسسة، جعل مخرجات التعليم تقع في هذا المأزق الفجع، والذي نتج فواجعاً هائلة، من المتعلمين العاطلين، الذين يعانون الاحباط وفقدان الامل بقيمة التعلم ودوره في تغيير المجتمع. بل ان النظرة القاصرة جعلت من الامر الفيد عبئاً يعسر تغييره والوعي به.

بحثاً عن الدور

لقد توقفت الثقافة العربية تحاول رأب الصدع فيها، فيما تكون بعض الدعوات وقد توجهت لمطالبتها باهمية اداء دورها، من خلال فهور العميق في التفصيلات للتعلقة بأحوال وشؤون الامة. ولعل الفقدان الفاضح لامكانات الفحص والتقصي، تكون بمثابة لعائق الاول والاساس الذي يرتبط، بتحديد هذا الوقف الذي يتخذه العرب ازاء الاحوال الريعة التي يعيشون. والتي لم تقف عند مجال غياب الاستقلال الحقيقي على صعيد السياسة، بل كخطة تبرز ملامحها في المجال الثقافي، الذي بات يفصح عن هذا الذى للقلق من الإندراج في ثقافة الآخر المهين والمسيطر. حتى غابت او تعدمت ملامح الثقافة العربية الأصيلة. وبات لحديث يكون على هوامش هذه الأوضاع، يتعلق بالأصالة والمعاصرة والذات والآخر. على طريقة إسقاط الفرض، ومحاولة العبور إلى مجال توكيد الحضور من دون الانشغال بمدى أهميته وتأثيره على الواقع.

من أي مجال يمكن للثقافة العربية، ان تنجز دور الرصد والحفر لحقيقي في مكنون العلاقات لداخلية، وكيف يتسنى لها تحديد الاستراتيجيات والفاعليات للؤسسة، من أجل حفز القوى الاجتماعية وقدراتها نحو النهوض من خلال رؤيا واسعة وشاملة، وليس استناداً إلى الحماس العفوي والارتباط بالمعالجات الباشرة للتعلقة بقضايا طارئة.

ما بين التوكيد والإنكار يبرز مجال العلاقة الحاكمة بين المجتمع والثقافة، فهذه الأخيرة ومهما بلغت من الغايات والطموحات، فإن لتعالق مع الكونات المادية والرتكزات الاجتماعية التي تكون مادتها ومساحتها لفاعلة فيها وعليها، تحدد فيها مجالات الامكان والأهداف، بل حتى الاتجاهات والتيارات لفاعلة والناشطة فيها. فالثقافة ليست بأحوال وشؤون الامة. ولعل الفقدان لفاضح لامكانات الفحص والتقصي، تكون بمثابة لعائق الاول والاساس الذي يرتبط، بتحديد هذا الوقف الذي يتخذه التنظير بسط هيمنتها على الواقع.

في الوقت الذي تبرز ضرورة تفاعل العامل الثقافي مع العوامل الأخرى داخل للضمون الاجتماعي، من أجل خلق لناخ لناسب وللائم، لتبني مشروع الفعل نحو التغيير، ولعل الفاصلة هذه، تكشف عن عمق المأزق الذي وضعت فيه الثقافة، وأريد لها أن تبقى جامدة تسودها السكونية، ولعدم لمبادرة، حتى غدت في مجال التداول العربي، وكأنها اللهاة التي يحاول الجميع إنتزاع لهمومه فيها.

القراءة الجديدة

لا غرو ان الوقع العربي يكشف عن هذا للمح العميق الذي يقف عقبة في طريق الإنجاز لعميق والفاعل للقطاعات الأساسية داخل البنية الاجتماعية. وفي ظل الاحتدام الذي يخيم على التفاصيل، يكون العامل الثقافي وقد غدا نهبا للاستدراج واللتقي السلبي، بل التلقين الساذج الذي يودي به للوقوع في مهالك الفهم للبتسر والإدراك للنقوص. حتى غدا التثقف العربي نهبا للتأثر بالتيارات الجديدة والطارئة من دون أن تبدر عنه مواقف حاسمة أو استجابات واعية لحقيقة ما يجري من حوله.

وتحت وطأة التثقل الذي تعانيه مجمل القطاعات الرئيسة في الحياة العربية، يكون الاتجاه نحو تلمس الأثر من هذا التعارض والتقاطع الذي يحيا وسط مكنون الثقافة ذاتها. وإذا كان الاتجاه السائد في الثقافة العربية وقعاً تحت إسار الضغط الذي تفرضه العوامل الوضوعية،

فإن هذا لا يعني انعدام إمكانية المبادرة من قبل للثقف العربي من أجل أخذ دوره الطليعي في مواجهة التحديات. ولئي لا نأتي كما جرت العادة، من خلال التوجه نحو الشعارات والشجب والتنديد والطالبة بالقضاء على هذا التيار أو ذاك. بقدر ما يستدعي الأمر رؤية جديدة قوامها الاحتكام إلى القراءة النقدية الصارمة والعميقة، التطلعة نحو لزيد من تفعيل الأفكار والعمل على تفعيل القيم من نطاقها للتخشب وللتصلب، إلى مجال الاقتراب الشديد من الإدراك والوعي الإنساني.

إن الحديث عن الواقع الضطرب الذي تعيشه الثقافة العربية في هذا الراهن للتداخل بالاتجاهات والتزاحمات، لا يعني بأن دورها قد توقف ولم تعدقادرة على التعبير عن ذاتها أو إمكانية التماهي مع الواقع. ولعل الإجابة تكمن في الدور التاريخي الذي لعبته الثقافة العربية على مدى أجيال من للواجهات والتحديات، إن كانت على مستوى التأسيس أو الحفاظ على مقومات الأمة. ولكن تبقى مقومات التفاعل الصادرة عن للثقف العربي، بمثابة التأكيد على حيوية هذا القطاع، لكنها الحيوية التي تحتاج إلى لزيد من التوصل والفرز والتدقيق،

في مختلف الاتجاهات والؤثرات، والتي لا تتوقف عند لجوانب النظرية، لتي تحرص الكثير من القوى على حشر الثقافة فيها.

بل أن أهمية دور الثقافة يكمن في الدور الأصيل والفاعل نحو ردم الهوة القائمة بين النظري والواقعي، حيث تبرز أهمية الرؤية الواسعة والشاملة نحو لزيد من لمارسة الحية القائمة على التصورات والدركات للتطلعة نحو صميم الحياة وتفصيلاتها،

من خلال جعل الثقافة في صلب الحياة، وجعلها لعبر الحقيقي عن آمال وتطلعات لجتمع.

رأي المؤرخين والمستشرقين بالمندائيين ولغتهم

يجمع كل المؤرخين والباحثين الغربيين على ان الدين المندائي قديم الجذور في التأريخ، ويحزم غالبيتهم بأنه نشأ وترعرع في ربوع بلاد الشام، وخاصة في الاردن وفلسطين، ويرون بأن المندائيين كانوا اصلاً في بلاد الشام، وان الدين المندائي ظهر في بادئ الامر هناك ثم نزحوا الى مصر والعراق بسبب الاضطهاد الذي لحق بهم، وكان ذلك قبل الميلاد

لؤي الخميسي

كما تقول (دراور) وفي القرن الاول الميلادي كما يذهب (ماتسوخ)، كما انهم علقوا على شكالية التسمية التي اطلقت عليهم، ولكنهم خلصوا الى القول، بعد ان اطلعوا على المؤلفات الدينية للندائية، وترجمتها، بأن سواد الصابئة يسمون بالمندائيين، اي العرفيين، او اصحاب العلم، اما رجال دينهم فيسمون بالناصورائيين، اي المتعمقين في الدين، والمطلعين عليه، وعلمه اسرار، وهي مأخوذة من كلمة (ناصيرونا) للندائية وتعني الضليع في العقيدة. وقال هؤلاء الباحثون بأن المندائيين هم من اصل آرامي ويستدلون على ذلك بلغتهم للندائية، التي هي لهجة من الآرامية، ويقولون بان للندائية هي ليست اللهجة الوحيدة للشتقة من الارامية، فهناك اللهجات السريانية والكلدانية ايضاً، والتي تسمى باللهجات الشرقية.

اما اللهجات الغربية - كما يقولون - فهي لهجة تدمر، والانباط التي تم تحويرها الى اللهجة العربية الشمالية، اي لغة اهل الحجاز. ويقولون ان المندائيين لعبوا دوراً دائماً في الحياة الروحية والثقافية، سواء في بلاد الشام، او في بلاد الرافدين. واعتد هذا التأثير منذ ظهور السيحية، وربما قبلها بقليل، حتى ظهور الاسلام، لا سيما ايام ازدهار الحياة الفكرية والاجتماعية في بغداد في العهد العباسي الاول، وكان لهم دور خاص في نقل الفلسفة اليونانية الى العربية، كما كان لهم دور ملحوظ في العلوم الرياضية والفلكية والطب والادب، والبويهي لبعضهم.

وقد اثار هذا الدور انتباه الكثيرين والمؤرخين العرب فكتبوا عنهم الكثير. ولكن مع تدهور الدولة العربية اثر احتلال للغول ثم العثمانيين، ابتعدت الطائفة عن الحياة العامة، وتعرضت الى

المؤرخون ان هذه الطائفة اجتذبت انتباه الرحالة والباحثين الغربيين منذ منتصف القرن السادس عشر للبلادي، عند زيارتهم لبلاد الرافدين، فبدأت المحاولات الاولى عام 1622 م للترجمة من قبل الاب (كلناسيوس) الذي ترجم ديوان (باثر) واحتك بأبناء الطائفة في مدينة البصرة،

ثم (برهام الايطالي) الذي ترجم (دارشة ديهيا، وسفر ملوشة) واعتذر لعدم وجود قاموس لفهم بعض لفردات.